امتدادات الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939)

في الجزائر (منطقة سيدي بلعباس نموذجا)

د/حنيفي هلايلي
جامعة سيدي بلعباس

لم يعد البحث التاريخي سجين موضوع واحد أو وثيقة وحيدة ذلك أن ميدان المؤرخ مجال رحب ويتسع باستمرار[1] جادا في تنويع المصادر والوثـــائق ومناهج الدراسة دون التقيد بمدرسة أو اتجاه معين.

يعتبر البحث في تاريخ الجالية الإسبانية في منطقة سيدي بلعباس خـــلال المرحلة الاستعمارية غير محظوظ بالمقارنة مع تاريخ المعمـــرين ذوي الأصـــل الفرنسي، ويعود ذلك إلى قلة الوثائق.

وخلال بحثنا عن تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال المرحلة الاستعمارية عثرنا على وثيقة أرشيفية محفوظة بأرشيف ما وراء البحار باكس أون بروفاس- فرنسا. وهي تكشف لنا علاقات الجالية الإسبانية بمنطقـــة ســـيدي بلعبـــاس بالجمهورية الاسبانية والممثلة في الجبهة الشعبية. ويندرج عملنا هـــذا في إطـــار التاريخ المحلي للجزائر الحديثة، بالتركيز على مسألة الاستيطان الأوربي في القرن العشرين وذلك بالنظر إليها من زوايا عديدة ومتكاملة تثري في نفس الوقـــت التاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي والمجال الجغرافي والتاريخ الثقافي.

أولا: الحرب الأهلية الإسبانية: 1936-1939.

كانت إسبانيا تعاني من التدهور العام الـــذي أصـــابها بعـــد فقـــدانها مستعمراتها في أمريكا الجنوبية في الربع الأول والثاني من القرن التاسع عشـــر، وبعد حربها الخاسرة ضد الولايات المتحدة الأمريكية في 1898.

وكانت الملكية الحاكمة تستند على كنيسة كاثوليكية متزمتة، وعلـــى الحكم الدكتاتوري الذي عطل العمل بالدستور،فانتشرت الأفكار الليبراليـــة في الجامعات والأفكار الاشتراكية بين العمال، وزاد من هذا التطور الليبرالي عمق الفساد في البلاط الملكي وبين الأرستقراطية المتنفذة.

ونظرا لعدم وجود زعامة قادرة على تكتيل قـــوى المعارضـــة للأوتوقراطيـــة الحاكمة. ونظرا لنمو نفوذ العسكريين المؤيدين للملكية، كانت الثورات الـــتي قامت قبل الحرب العالمية الأولى غير فعالة.

في سنة 1931 أحرزت الأحزاب الجمهورية نصرا انتخابيـــا ضـــخما. حيث أعلنت الجمهورية وتولى زمورا (Zamora) رئاستها وتشكلت حكومـــة اشتراكية يسارية مناهضة للكنيسة والملكية وللدكتاتورية العسكرية. ووقعـــت حكومة زمورا برنامجها الإصلاحي على الأسس التالية:

*حكم جمهوري برلماني ديموقراطي انتخابي.

*الحرية الدينية.

*تنفيذ الإصلاح الزراعي وتأمين أملاك الكنيسة.

تعرض الحكم في إسبانيا لأزمة الثقة بعـــد أن تـــولى الـــوزارة أزانـــا (Azana) والذي ليس له شعبية أو مقدرة على مواجهة الظـــروف، وتعرضـــت البلاد لثورة شيوعية عام 1934. ولما شعرت القوى اليسارية أن الأمور تكـــاد تفلت منها، اتبعت الأسلوب التقليدي وهو الحصول على أغلبيـــة برلمانيـــة في انتخابات 1936، حيث حصلت الجبهة الشعبية على 267 مقعدا، بينما حصلت أحزاب اليمين على 132 مقعدا، الأمر الذي جعـــل الصـــدام مواجهـــة بـــين الخصمين، بعد أن جنح اليمينيون استخدام الإرهاب المسلح وسيلة للقضاء على خصومهم. وعملت الجبهة الشعبية على إبعاد زمورا عن رئاســـة الجمهوريـــة وأسندوها إلى أزانا الذي لم يستطع التغلب على الأوضاع المتردية في البلاد.

كانت بداية الثورة على يد الضباط حيث تمكن الجنرال فرانسيســـكو فرانكو (Francisco Franco) الذي كانت معظم قوته من العناصر المغربيـــة.

وكان التدخل الأوربي في الحرب من جانب كل من روسيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا هو المسؤول عن إطالة الحرب الأهلية في إسبانيا من 1936إلى 1939.

لقد قدمت إيطاليا الألوف من جندها لمساعدة فرانكو، أما الحكومة الاشتراكية بقيادة كاباليرو (Capallero)، التي تعمل على صد فرانكو عن مدريد وتضم اشتراكيين وشيوعيين حيث عمل الاتحاد السوفياتي على تأييد هذه الحكومة عسكريا، وأصبح الصراع في إسبانيا بين الاشتراكية البرجوازية القومية من جهة والشيوعية العالمية من جهة أخرى. وكان فرانكو يرمي إلى تأسيس حكم ديكتاتوري وخاصة بعد انتصاره على خصومه ولكنه اتبع سياسة الحياد خلال الحرب العالمية الثانية.

ثانيا: التواجد الأسباني في منطقة سيدي بلعباس

تشير بعض الدراسات على أن منطقة سيدي بلعباس استحوذت على حصة الأسد في سياسة الاستيطان الأوربي خلال المرحلة الاستعمارية. وهذا منذ بداية تأسيس المراكز الاستيطانية على أن العنصر الأسباني استوطن منطقة سيدي بلعباس بكثرة وذلك لعدة اعتبارات نذكر منها:

*التأقلم الجغرافي والمناخي الملائم للبيئة الاسبانية.

*المعرفة الجيدة لأراضي سهل مكرة من طرف المزارع الإسباني.

*حياة البؤس والفقر والحرمان التي عاشها الأسبان في بلادهم.

والجدول يبين لنا عدد السكان الأوروبيين بمنطقة سيدي بلعباس في شهر ديسمبر 1859.

الجنس	العدد/نسمة
فرنسيون	2157
إسبان	2046
يهود	427
المجموع	4618

ومن خلال هذا الجدول نستشف أن أفراد الجالية الإسبانية أصبحت تحتل المكانة الثانية في الاستيطان بعد الفرنسيين، وهم ينتمون إلى مناطق إسبانية مختلفة نذكر منها: آلميريا (Almeria). بلنسية (Valence). مايورقة (Majorque) ،[3] وبسبب الحضور المكثف لهؤلاء الإسبان في منطقة سيدي بلعباس، جعل تأثير لغتهم واضحا على ساكنة سيدي بلعباس وهذا مايظهر جليا عل ألسنة المسنين.

والجدول التالي يوضح لنا ذلك[4]:

اللفظ باللهجة الجزائرية	مدلوله	اللفظ باللسان الإسباني
بابور	باخرة	Babor
براكة	كوخ	Barraca
بلاصة	ساحة	Plaza
بلوزة	لباس	Blusa
بندير	دف	Pandera

برافو	ممتاز	Bravo
بلاكة	لافتة	Placa
بلكون	شرفة	Balcon
دورو	نقد اسباني	Duro
كانتينا	حانة	Cantina
كبوط	معطف	Capote
كارو	عربة	Carro
الكوشة	الفرن	Cocha
الكيف	النشوة	Kif
لامبة	مصباح	Lambara
لاطة	قطعة من الحديد الأبيض	Lata
الماريو	خزانة الملابس	Armario
الماركة	النوع-الصنف	Marca
صالة	قاعة فسيحة	Sala
صندالة	نعل	Sandalia
صباط	حذاء	Zapato
فالطة	خطأ	Falta
فبريكة	معمل	Fabrica
فنطزية	المختال	Fantazia
قرداش	آلـــة تســـتعمل في كربلـــة	Cardas

	الصوف	
سمانة	أسبوع	Semana
نانة	كلمة تعظيم للمرأة وفي الأسبانية تستعمل للجدة والحاضنة.	Nana

لقد سمحت المشاريع الفرنسية في الجزائر من استقرار عدد هام من الأوروبيين من مختلف الجنسيات. ونقرأ في إحصائيات 1959 أن عدد سكان مدينة سيدي بلعباس وصل إلى 5259 أوروبي منهم 2157فرنسيا و2046 إسبانيا[5].

ونقرأ في الجدول التالي تطور الاستيطان الأوروبي بمنطقة سيدي بلعباس خلال سنوات مختلفة:[6].

السنوات	عدد السكان		
1849	516 نسمة		
1851	1234 نسمة		
1877	14456 نسمة	اسبان	9686 نسمة
		فرنسيون	4343 نسمة
		يهود	427 نسمة

والجدير بالملاحظة أن أعداد المستوطنين الفرنسيين ارتفع بسبب هجرة سكان الألزاس واللورين، واستقروا في المناطق التالية: سيدي لحسن، سفيزف، بوشبكة، سيدي علي بن يوب، زروالة، وهذا مابين سنوات 1871-1873.

أما المرحلة الثانية، فنسجل تضاعف أعداد السكان الأسبان في منطقة سيدي بلعباس، وهذا مايجعلنا نجزم بتواجد مكثف فرنسي-إسباني بسهل مكرة.

ومن الأمور المتعلقة بثراء الإسبان في منطقة سيدي بلعباس ويجب الإشارة إليها، أن كثيرا من أفراد الجالية الأسبانية. إلى جانب استثمارهم لبعض النشاطات الحرفية، قاموا بتشييد المئات من الضيعات والمزارع الكبرى التي تنتج الحبوب والفواكه والخمور، وجاءت هذه الأعمال نتيجة طبيعة العنصر الأسباني الذي توارث هذا النشاط الفلاحي في إسبانيا منذ قرون عديدة.

لقد شيد الأسبان بمنطقة سيدي بلعباس مزارع كبرى على غرار ما فعله الرومان في الجزائر خلال الفترة القديمة تحت اسم لاتيفونديا (Latifundia)، وتشير بعض المصادر المحلية إلى أن هناك معمرين من ذوي أصول إسبانية اختصوا في إنتاج الخمور وكانوا على رأس قائمة المنتجين في الجزائر، ومن بين هؤلاء نذكر عائلة فرنداز(Fernandez) و(سرقسطة Sarragosa) [7].

والجدول التالي يلخص لنا أملاك بعض المعمرين من ذوي الأصول الإسبانية في منطقة سيدي بلعباس خلال فترة الخمسينيات [8]:

أسماء الكولون	مساحة الأراضي/ هكتار	المناطق الزراعية
رويز كارلوس (الأب) (Ruiz carlos)	7000هكتار حبوب	قايد بلعربي تلموني
رويـــز هيبـــار(الابن) (Ruiz Hubert)	4500 هكتار حبوب وخمور	تلموني – سيدي علي بوسيدي سيدي خالد
رفائيل Raphaeil	2000هكتار خمور حبوب فواكه	طابية
باليستا آلونزو Ballesta Alonzo	عدة ضيعات حبوب خمور	سيدي علي بوسيدي

وإلى جانب هذه المواقع الاقتصادية والعقارية الـــتي عرفتـــها الجاليـــة الإسبانية، فإن معظمهم كان يسكن في أحياء معروفة في مدينة سيدي بلعباس، كحي سيدي ياسين وحي كياسون(El calle del sol) أي حي الشمس.

ثالثا: الدعاية السياسية للجبهة الشعبية لإسبان الجزائر:

نظرا للمكانة الاستراتيجية التي احتلتها الجالية الإســـبانية في الجزائـــر خلال العهد الاستعماري، وبحكم تواجدها المكثف في الغرب الجزائري وبخاصة في منطقة سيدي بلعباس، فقد عملت حكومة الجبهة الشـــعبية الأســـبانية إلى تكثيف حملاتها الدعائية الموجهة للإسبان المستقرين بالجزائر. وهذا من خـــلال توعية الجماهير الإسبانية بخطورة الوضع الأمني الذي تشهده الساحة الأســـبانية من جراء الحرب الأهلية وسيطرة الجيش على الحكم. فتم تنظيم سلســـلة مـــن التظاهرات والندوات لتحسيس المستوطن الأسباني بضرورة المساهمة في إنقـــاذ وطنه من هذه المحنة.

والوثيقة الموجودة بأيدنا[9] هي عبارة عن نداء موجه للأسبان المقـــيمين في سيدي بلعباس حيث تحثهم لجنة الإنقاذ الوطني إلى ضرورة مؤازرة الحكومة الشعبية من غطرسة عناصر الجيش والقوى الأمبريالية الفاشية والنازية، وتطالبهم برفع أصواتهم لتقديم يد العون والمساعدة للميليشيات الشعبية وكـــل القـــوى الديموقراطية المتواجدة في التراب الأسباني، كما تحثهم الحكومـــة الأســـبانية إلى تسجيل أسمائهم في مكتب القنصلية الأسبانية بمدينة سيدي بلعبـــاس، لتقـــديم التبرعات والأموال والملابس والأغذية والأدوية لصالح الأسبان المتضررين مـــن جراء الحرب الأهلية.

ومما جاء في نص النداء[10]:

إلى الجالية الإسبانية بسيدي بلعباس

أيها المناضلون!

إن مجموعة من الأسبان الديموقراطيين يوجهون بهذه الرسالة إلى سكان ســـيدي بلعباس(من ذوي الأموال الأسبانية)، لنخبرهم بصيحة الرجال الأحرار.

تعيش إسبانيا حاليا وضعا مزريا بسبب الحـــرب، والنظـــام الفاســـد (العسكري) لم يعترف بهزيمته السياسية (الانتخابات) ويمـــارس ألوانـــا مـــن الاضطهاد على الشعب الأسباني بمختلفة شرائحه.

إن قادة الجيش والقوى الأخرى وبالتعاون والتواطؤ مع القوى الفاشية العالمية، رفعوا السلاح ضد النظام الشرعي في البلاد والذي فاز في الانتخابـــات الشعبية بطريقة ديموقراطية.

لقد تمت مصادرة الأسلحة التي جمعتها الأمة للدفاع عن مصلحة الوطن، وتمرد الجيش على الحكومة ويحاول القضاء على الحرية المدنية للمواطنين. مما تسبب في تحطم آمال الشعب الأسباني وحكومته.

لقد استطاعت الميليشيات الشعبية وبمؤازرة الحكومة، إحراز النصر على الجيش المحترف، وهذا ما سيسجله التاريخ، حيث مرتزقة الحرب (المغاربة) الذين سيق بهم إلى التراب الأسباني للمشاركة في الحرب أن مهمتهم ستكون سهلة، ضد شعب يدافع من أجل الحرية.

ومع هذا فإن الدعم الفاشي والقوى الرأسمالية لعناصر الجيش ساهم في إطالة أمد الكفاح.

هل يمكننا ترك إخواننا يواجهون مصيرهم في المجهول؟ أرسلوا دعمكم لهم وتضامنوا مع الحكومة الديموقراطية، فإن الكفاح ليس لأسبانيا لوحدها، بل للعالم أجمع.

ساندوا إخوانكم في إسبانيا بالدعم المادي المتمثل في المال والملابس والغذاء والدواء!

ساندوا الميليشيات الشعبية وذلك بالتوقيع في عارضة موجودة بقنصلية الأمة الأسبانية بسيدي بلعباس.

أيها الأسبان:

من أجل الحرية والديمقراطية.

من أجل نظام العدالة الاجتماعية.

من أجل حكومة ديموقراطية عمالية.

ضد الفاشية محرك الحرب.

ضد الأنظمة الغاشمة.

ضد أعداء الجبهة الشعبية.

ساهموا معا في مساندة الوطن الجريح.

اللجنة.

يفيدنا نص الخطاب الموجه إلى الجالية الأسبانية بمنطقة سيدي بلعباس بـــأمور في غاية الأهمية نلخصها في النقاط التالية:

°1 التأكيد على صفة انتقال والتواصل مع أفراد الجالية الأسبانية بمنطقة سيدي بلعباس من خلال الامتداد الحضاري والمصيري للوطن الأم (إسبانيا).

°2 شرعية الحكومة الممثلة في الجبهة الشعبية الممثل الوحيد للشعب الأسباني. مع ضرورة التأييد والمساندة ماديا ومعنويا.

°3 نعت حكومة الجيش بالفاشية والإمبريالية.

°4 مطالبة أسبان الجزائر بالمساندة المادية من خلال تقديم المال والغذاء والملابس والأدوية، وهذا دليل عن ثراء الجالية الأسبانية بالجزائر.

وعليه فإن العنصر الأسباني المستقر بمنطقة سيدي بلعباس، قد ســـاهم بنشاط اقتصادي مميز في الحرب الأهلية الأسبانية (1936-1939)، وكان له تأثير واضح إذ لم يعارض دعمه المادي والمعنوي للشعب الأسباني وهو يعيش محنـــة الحرب الأهلية.

الإحالات

Emmanuel, le Roy-ladurie, le territoire de l'historien, Paris, Gallimard, 1973, -1 PP.10-15

.

2-عبد العزيز سليمان، نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحـــرب العالمية الثانية، بيروت: دارالنهضة العربية، 1984، ص 608-609.

Mac lumuniere, Histoire de l'Algérie illustrée de 1830 à nos jours, -3 Paris,Ed. Coutier, 1962, P68.

4- الجدول من وضع الأستاذ هلايلي حنيفي.

Othon patrik Kremar, Sidi Bel abbes et les Bélabésiens, une ville française, -5 Africa Nostra, 1984, PP.10-12.

Adrein Pierre, Boyer l'évolution de l'Algérie médiane, de 1832 à 1956, Paris, -6 Ed , Maisonneuve, 1960, P.123

Leon, Adoué, la ville de Sidi Bel Abbes, histoire, légendes, -7 Anecdotes, Sidi Bel Abbes, Imp, René Roidot, 1927 ? P. 168.

R.Ainad Tabet, Histoire de l'Algérie, Sidi Bel Abbes, de -8 la colonisation à la guerre de libération en Zone 5, Wilaya V, (1830-1962), Ed. ENAG, Alger, 1999,P.83.

9- الوثيقة التي هي بين أيدينا مكتوبة باللغة الإسبانية ومحفوظة بأرشيف مـــاوراء البحـــار بـــأكس أون بروفانس تحت رقم:.A.O.M.F.80 2074-25-7-201. وتم ترجمة هذه الوثيقة إلى اللغة العربية مـــن طرف الدكتور هلايلي حنيفي.

10- نداء موجه للجالية الأسبانية بسيدي بلعباس مكتوب باللغة الأسبانية.